يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

﴿ قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و«منارا» كمنار الطريق ﴾

﴿مصر — الخميس غرة شعبان سنة ١٣٢١ — ٢٢ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٠٣﴾

القسم الديني

باب تفسير القرآن الحكيم

﴿سورة العصر﴾

اقترح بعض العلماء في الجزائر على الاستاذ الامام ايام كان عندهم ان يقرأ لهم درسا عاما يستفيدون منه ، ويتحقق به تلقيهم عنه . ففسر لهم سورة العصر وقد كتب بعض من حضر الدرس ملخص ماقاله الامام وكتب بعضهم يقول ان بعض الكاتبين اخطأوا فيما كتبوا واقترح ان يكتب الاستاذ الامام نفسه تفسير السورة وينشر في المنار ليصحح عليه الكاتبون ما كتبوا فعرضنا ذلك عليه فكتب أيده الله بروحه مايأتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ *

المرجح ان هذه السورة من المكيات . وقد ورد عن الشافعي فيما أنه قال : لو لم ينزل الا هذه السورة لكفت الناس : وفي رواية عنه : لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم : وصح ان الصحابة رضي الله عنهم كانوا اذا

اجتمع اثنان منهم لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر هذه السورة الى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر . وقد ظن الناس أن ذلك كان للتبرك وهو خطأ وانما كان ليذكر كل واحد منهما صاحبه بما ورد فيها خصوصا من التواصي بالحق والتواصي بالصبر حتى يجتلب منه قبل التفرق وصية خير لو كانت عنده

جرت سنة الله في كتابه ان يقسم أحيانا بشيء من خلقه أو بشأن من شئونه لينبه الناس الى ما أودع فيه من الحكمة وانهم ان كانوا قد نسبوا اليه شيئاً من الشر او ظنوا فيه ضربا من السوء فهم مخطئون فان السوء والشر ليسا في هذه الاشياء وانما هذا في نفوس المستعملين أو المعتقدين وقد كانت أديان يظن أهلها ان هذا الكون الزماني وما فيه كون شر وفساد ومن الواجب على طلاب السعادة ان يحقروه وان يفروا من طيباته ويجردوا نفوسهم الى عالم آخر فوق عالم الكون والفساد . فجاء الكتاب المبين يبين لهم سوء فهمهم عن الله . ومن طرق تنبيههم الى خطأهم تلك الاساليب التي جاءت في القسم ووردت في الكتاب . أراد ان يكشف لهم ان هذه الاشياء من حكمة الله بالمنزلة التي تبلغ ان يقسم الله بها كأنها مما يعظمه الله وناهيك بذلك الذي يعظمه خالق كل شيء ووجود كل موجود الذي لا وجود لشيء الا منه

العصر إما القطعة المعروفة من الدهر وهو الزمن الذي يعيش فيه المتكلم مع غيره سواء قدر بعدد من السنين كمئة سنة مثلا أم لم يقدر ، وإما الوقت المعروف من النهار ما بين الظهر والمغرب وكل منهما تصح إرادته . وقد اعتاد الناس سب الاول فكل يشتكي من عصره ويقول :

هو عصر جهالة وذلة ، ونقص مروءة ، وخبث طوية ، ورداءة عمل ، ويذمون ماشاءوا من الخير الى ما كان قبل عصرهم من العصور فاراد الله ان يزعج نفوسهم عن مثل هذا الاعتقاد بأن أقسم به ليدهش عقولهم بتعظيم ماألفوا تصغيره ، ورفع قدر ماعتادوا تحقيره ، والعصر بالمعنى الثاني كان الوقت الذي يجتمع فيه الاعطال من العرب قريش وغيرها اما عند الحرم أوفى مواضع أخر من منتديات الاحياء ويخوضون فيما لاخير فيه من غيبة أو هزء وسخرية او لغو من الحديث مله عن جد العمل فوقر فى نفوسهم ان ذلك الوقت نفسه هو قرارة السوء ومجتمع الشر فدفع الله ذلك عن الزمان اليهم وعلمهم ان الوقت نفسه بمنزلة من الشرف يصلح معها لان يقسم به خالق السموات والارض فكان عليهم ان يستعملوه فيما يناسب هذه المنزلة ويشغلوه بطيبات الاعمال فيخلصوا بذلك من الخسران الذي لم يلحق بهم الا بسيئات أعمالهم

إنما ورد هذا القسم - على أي المعنيين - تأكيد الخبر الذي أراد الله أن يسوقه الينا وهو ان الإنسان في خسر الخ وإنما احتاج هذا الخبر الى التأكيد لأن كثيرا من الناس يظنون ان من الأحوال والاعمال وراء ماذكر فى هذه السورة مالا خسار فيه بل يعتقدون ان السعادة فى التلخص من عقد الايمان ، والعتق من قيود الفضائل ، وانطلاق النفس فيما يسمونه متسع الفكر ، وحرية العمل ، بدون تحرج من رذيلة ، ولا إحجام عن فاحشة ، متى كانت تلذ للنفس فى العاجل ، وان أدت بها الى الهلكة فى الآجل ، وأن من الامم من يسعد وان اتبع أفرادها أهواءهم ، وملكتهم شهواتهم ، مادام يكسبون المال ويوفرون على أنفسهم وسائل القوة فى زعمهم سواء

آمنوا ام لم يؤمنوا ، عملوا الصالحات ام لم يعملوا ، تواصوا بالحق والصبر ام لم يتواصوا ، وأمثال هؤلاء الظانين يفوق عددهم الحصر في كل زمان ومكان

« أل » في الانسان للاستغراق كما يدل عليه الاستثناء في قوله « الا الذين آمنوا » والاستغراق بأل في لسان العرب ليس كالاستغراق بلفظ « كل » الذي يسوّر بها المناطقة قضاياهم الكلية وليست « أل » مساوية لكل التي تضاف الى النكرة ويريد بها العربي تعميم الحكم في جميع أفراد الجنس وانما يراعى في « أل » استغراق المعهود عند المخاطبين لأنها في لسانهم للعهد وتعريف الجنس إما في فرد أو أفراد ولن تفارق العهد في حال من الاحوال . وكذلك التي يسميها النحاة للعهد الذهني ويتحيرون في الفرق بينها وبين النكرة ثم يقول من لا يعرف خصائص اللسان منهم : ان الفرق في اللفظ واجراء أحكامه أما المعنى فلا فرق فيه : وهو وهم فاسد فان قول الرجل لعبده : اشتر اللحم من السوق : لا يفهم منه أي لحم في الكون بأسره ولا أيّ سوق في العالم بأجمعه ولكن قد عهد السيد نوعا خاصا تعود العبد شراءه وأسواقا خاصة هي أسواق المدينة التي يقيم فيها وان لم يتعين أحدها فالعهد والتعريف به لم يفارقها . والفرق بين المعنى معها والمعنى في النكرة واضح لمن يعرف خصائص اللسان

والانسان الذي تجري عليه أحكام الانسانية ويحدّث عنه في مثل هذه الشئون هو من بلغ سن الرشد عاقلا يميز بين الخير والشر وليس يخطر بالبال عند التخاطب في مثل هذا المقام الصبيان غير المكلفين ولا المجانين . ولو أتى بلفظ « كل إنسان » لشمل ذلك . ولا تؤدي « أل » مؤدى « كل » الا بقرينة . فالاستغراق في الآية على حقيقته وهو شامل لجميع أفراد المكلفين من

الناس سواء كانوا ممن بلغتهم رسالات الانبياء ام ممن لم تبلغهم كما سيأتي بيانه

والخسر في اللغة يطلق على الضلال وعلى الهلاك وعلى النقص وكل ماجر عليك عملك من شر فهو خسر لك وخسران وخسارة لانك كنت تبتغي بعملك الفائدة والثمرة الطيبة تجنيها منه فاذا جر عليك ما كنت تتوقاه ، وحرمك ما كنت تتوخاه ، فقد خسرت لانك ضللت في القصد ، ودخل النقص عليك في بغية نفسك ، وأتاك التعب من حيث تطلب الراحة ، وكل ما آلمك وأشقاك وأقلق نفسك ، واضطرب له قلبك ، فهو نقص في لذتك . واذا عملت عملا وانت تقصد به سكون القلب ، وهناء العيش ، فحدث انزعاج النفس ، ونقص الطمأنينة ، فقد ضللت به في القصد ، وخسرت في السعي ، والخسر في الآية مطلق لا يتقيد بدنيوي أو أخروي فكل مكلف ممن لم يتصف بالاوصاف الآتية (في السورة) يصيبه حظ من الخسران في هذه الحياة أو في التي بعدها ، لأن السورة مكية كما قلنا والخطاب في المكيات ، كانت تراعي فيه العمومات في كثير من الآيات ، كما تراه في سورة «والليل اذا يغشى» مثلا والخسر بفقد الراحة وطمأنينة النفس

الايمان في هذه السورة مطلق كذلك لم يتقيد بشيء كما ترى ولكنه محمول على ماهو معروف عند المخاطبين والامس بعموم الخطاب انه اذعان النفس لليقين بالفرق بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة وبأن على الوجود مسيطرا يرضى الخير ولا يرضى الشر ويحب الفضيلة ويكره الرذيلة وأن من رحمته ان يخص من شاء من خلقه باطلاعهم على شيء من سره وأمرهم بأن يبينوا للناس ما التبس عليهم من مذاهب أعمالهم ، ويعرفوهم مداخل الاهواء الفاسدة الى قلوبهم ، ومسالك الدلائل الصحيحة الى عقولهم ،

فيقبلوا على هذه ويتلقوا مايساق اليهم منها ، ويسدّوا على أنفسهم تلك ويقيموا من العزم حارساً على نوافذها يمنع ما عساه يهوي اليها ، وهذا الايمان هو المدلول عليه بقوله تعالى في سورة (والليل اذا يغشى) : «وصدق بالحسنى» : وليس الايمان هاهنا هو التصديق المقرون بالاذعان لتفصيل الاحكام الواردة في شرعنا خاصة فان الحكم انما هو على الانسان في جميع أمكنته وأزمنته لايختص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم بل يعم الامم جميعها ماضيها وحاضرها ومستقبلها فالكلام في السورة لتقرير حكم عام من أحكام الانسان في نفسه وانما تدخل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم في حكم هذا العام ويكون من بلغته تلك الرسالة ولم يصدق بجميع ماورد به القطعي سنداً ودلالة من نصوصها خاسراً في الدنيا والآخرة بحكم هذا النص من جهة عمومه وبالنصوص التفصيلية الاخرى التي وردت في كثير في سور القرآن

وليس الايمان كذلك مجرد مايسميه الناس اعتقاداً وان كان بمحض التقليد لاعمل لعقل ولا لوجدان فيه فان مثل هذا الايمان قد خسرت معه أمم كثيرة ممن صدقت برسلين صادقين ، وأنبياء هادين ، وإنما المراد منه ذلك التصديق المقرون بطمأنينة النفس وخضوع القوى لحكم ما آمن به «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» ذلك الايمان هو الذي كان الله ولا يزال يناط به النجاة من الخسران في الدنيا والآخرة . وسيأتي ايضاح ذلك أيضا

أما هذا الذي يتلقاه الناس من أفواه آبائهم فينشأ ابن المسلم لايفهم

معنى لما يعتقد أو لما يقول أبوه وإنما ينطق كما ينطق وتأخذه الحمية لما يراه يحمى له لا يفهم لذلك معنى ولا يجد لنفسه فيه بصيرة كما ينشأ ابن النصراني أو ابن اليهودي أو ابن المجوسي على مثل ذلك ـ فهو مما لا يعتد الله به وإنما يعتد الله بتلك السكينة الروحية التي تشعر النفس بهبطها اليها وذلك العقد القلبي الذي يعرف القلب مكانه منه. هذا هو الايمان الذي يليق ان يسمى حياة للنفس يعدها للشعور بجميع ما يلزم له وما يصح ان يحمل عليه. أما ذلك الذي سموه إيمانا وهو ليس به فهو مما يقتل النفوس ويهلك الأرواح ويسلك بها مسالك الجهل وينتهي بها الى مهاوي الهلكة

أما الصالحات في هذه السورة فهي تلك الاعمال التي عرفت عند الناس بأنها من أعمال الخير النافعة لخاصتهم وعامتهم المتفقة مع مصالحهم التي لا تنكرها الاذواق السليمة، ولا تجافيها الطباع المستقيمة، ومنها ما هو من ضروب الشكر لفيض الخير والاحسان على الخلائق أجمعين كالعبادات الصحيحة التي جاء بها كل دين صحيح في أي أمة من الامم التي دعيت الى الأخذ بذلك الدين زمن العمل بشريعتها. ومنها ما هو من ضروب البر كبذل الاموال في طرق الخير والسعي في اغاثة المنكوبين، واقالة العاثر، والعدل في الحكم، وانقاذ المظلوم من الظلم، ونحو ذلك مما يطول تفصيله. ومنها فضائل الملكات التي تصدر عنها الصالحات كالامانة والعفة والانصاف والمحبة والاخلاص وأمثال ذلك. كل هذا يسمى صالحات وان كان منه ما هو بدني يتعلق به العمل الظاهر، ومنه ما هو قلبي يتعلق به العمل الباطن، والعمل يتعلق بالملكات لانها انما تحصل عادة بترويض النفس عليها، ومجاهدتها في سبيل تحصيلها، ويدخل في هذه الاعمال عند كل أمة

ماوردت به شريعة رسولها ويدخل فيها ماهدى اليه العقل عند الامم التي لم تبلغها رسالة . وان من أصول الصالحات ماهو معروف عند البشر عامة لاتختلف فيه أمة كالاصول التي ذكرناها قبل أسطر ولذلك سميت في الكتاب بالمعروف وسميت أضدادها بالمنكر أي ما تعرفه النفوس السليمة ، وماتنكره العقول الصحيحة

التواصي نوصي كل من الشخصين صاحبه بشيء . والحق مايقابل الباطل وهو يكاد يكون معروف المعنى عند كل الناس وانما يخطيء أغلبهم في حمل هذا المعنى على جزئياته فيأتي الواحد منهم الى أشد الباطل بطلانا ويقول انه الحق . فلو حمل الحق هاهنا على مايراه الموصي حقا لكان المعنى : وأوصى كل منهم صاحبه بما يعتقده حقا وطالبه بالاخذ به : وربما كان الآخر لايعتقد أن الحق مع موصيه فيكون التواصي ضربا من التنازع لأن كلا يدعو الآخر الى مالا يرضاه وهو النزاع بعينه فلا يصح حمل المعنى عليه وانما الذي يصح ان يقصد هو ان يوصي كل واحد صاحبه بتحري الحق فيما يعتقد بأن ينبهه الى الحرص على البحث في الادلة والتلطف في النظر للوقوف على الحق الذي هو الواقع لايختلف فيه بمدمعرفة وجهه فاذا رأى منه ضلة هداه باقامة الدليل على ماهو الهدى ، واذا رأى منه تقصيرا في النظر نهض به اليه ، واذا وجد منه رعونة في الاخذ بظواهر الامور دون النفوذ الى بواطنها نصح له بأستعمال الروية وامعان الفكرة . وهكذا يكون على الآخر ان يعمل مع صاحبه مثل مايجب عليه ان يعمل منه . وفرض التواصي على كل واحد يبيح للصغير او يوجب عليه مايبيح للكبير أو يوجب عليه من ذلك الا انه لايمنع من رعاية كل قائم بواجب عليه حق

الآخر فلوصية الصغير وعرضها على الكبير طريقة غير طريقة سوق الوصية من الكبير الى الصغير يعرف ذلك القوم على حسب آدابهم وما ألفوا في تخاطبهم . والتواصي بالحق يدخل في الصالحات وإنما ذكره بلفظه لينوه بفضله ويشير الى انه أصل بنفسه تناط النجاة به استقلالا .

ولا يصح ان يظن ظان ان النجاة منوطة بالتواصي بالحق وان لم يكن الموصي آخذا به فلو كان مبطلا وأوصى بالحق فقد نجا، هذا ما لا يقل وإنما جاءت الآية الكريمة على طريقة الايجاز التي فضل بها القرآن جميع الكلام فان المراد من كان على الحق وأوصى به . ومن المعروف عند العقلاء أنه لا يوصي بالشيء ولا يدعو اليه الا من أصاب منه الحظ الاوفر وكيف يدعو الى أمر ويحسن الدعوة اليه من لا تكون له من ذلك الأمر حلبة يعرف بها . وما تراه من قوم يدعون الى المعروف وهم يقيمون على المنكر فذلك لا يعد دعوة صحيحة لانهم لا يعرفون كيف يدعون وهم في دعوتهم الى ما يدعون اليه ينفرون الناس منه ولا يميلونهم الى ناحيته وخطاب الكتاب إنما جاء على المعروف المألوف عند العقلاء . وإنما قال «وتواصوا» ولم يقل : وأوصوا : ليبين ان النجاة من الخسران إنما تناط بحرص كل من أفراد الأمة على الحق ونزوع كل منهم الى أن يوصي به قومه . ومن يهمه أمر الحق ليوصي صاحبه بطلبه يهمه ان يرى الحق فيقبله فكأنه في هذه العبارة الجزلة قد نص على تواصيهم بالحق وقبولهم للوصية به اذا وجهت اليهم

والصبر خلق من أمهات الأخلاق بل مسلك كل خلق . قالوا في فضل الصبر إنه ذكر في القرآن نحو سبعين مرة وليس لنا فائدة كبرى في تحديد العدد ولكن جاء في الكتاب العزيز ذكر الصبر ومدح أهله وتبشيرهم

بالفوز والفلاح. والصبر ملكة في النفس يتيسر معها احتمال مايشق احتماله والرضى بما يكره في سبيل الحق وهو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق وما أتي الناس من شيء مثل ماأتوا من فقد الصبر أو ضعفه. كل أمة ضعف الصبر في نفوس أفرادها ضعف فيها كل شيء وذهبت منها كل قوة، ولنضرب لذلك مثلا نقص العلم عند أمة من الأمم كالمسلمين اليوم، اذا دققت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر فان من عرف بابا من أبواب العلم لايجد من نفسه صبرا على التوسع فيه والتعب في تحقيق مسائله وينام على فراش من التقليد هين لين لا يكلفه مشقة ولا يجشمه تعبا ويسلي نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه ولو كان عنده احترام حقيقي لسلفه لاتخذهم أسوة له في عمله فحذا حذوهم وسلك مسلكهم وكلف نفسه بعض ماحملوا أنفسهم عليه واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين. ثم هو اذا تعلم لايجد صبرا على مشقة دعوة الناس الى علم مايعلم وحملهم على عرفان مايعرف ولا جلدا على تحصيل الوسائل لنشر ماعنده بل متى لاقى أول معارضة قبع في بيته وترك الخلق للخلق كما يقولون. يجلس الطالب للدرس سنة أو سنتين ثم تعترضه مشقة التحصيل فيترك الدرس أو يتساهل في فهمه أو يكل والده من الانفاق عليه فيصرفه الى حرفة أخرى يظنها أربح له فينقطع عن الطلب، ويذهب في الجهل كل مذهب، وكل هذا من ضعف الصبر

يبخل البخيل بما له ويجهد نفسه في جمعه وكنزه وتعرض له وجوه البر فيعرض عنها، ولا ينفق درهما في شيء منها، فيؤذي بذلك وطنه وملته، ويترك الشر والفقر يأكل قومه وأمته، ولو نظرنا الى ماقبض يده لوجدناه ضعف الصبر ولو صبر على محاربة خيال الفقر اللائح في ذهنه

يهدده بالنزول به ، لما أصيب بذلك المرض القاتل له ولأهله ،

يسرف المسرف فى الشهوات ، ويهتك المتهتك فى المنكرات ، حتى ينفد المال ، وتسوء الحال ، ويستبدل الذل بالعز ، والفقر بالغنى ، ولا سبب لذلك الاضياع صبره فى مقاومة الهوى ، وضبط نفسه عن مواقع الردى ، ولو صبر فى مجاهدة تلك النزغات لما كان قد خسر ماله ، وأفسد حاله

وهكذا لو أردت أن أعد جميع الرذائل وأبحث عن عللها الاولى لوجدتموها تنتهي الى ضعف الصبر أو فقده ، ولو سردت جميع الفضائل وطلبت ينبوعها الذي تستمد منه حياتها ما وجدت لها ينبوعاً سوى الصبر ، أفلا يكون جديرا بعد هذا بأن يخص بالذكر ؟ فالحق حياة العلم ، ومستنام السكينة ، ومطمأن العقل ، ومستقر الراحة للنفس ، والصبر مستمد الفضائل ، ومدحرة الرذائل ، ومسلك الصالحات ، وملاك الحسنات ، فجدير بهذين الاصلين الجليلين ان يخصا من بين أعمال الانسان بالإشادة بذكرهما ، والتنويه بفضلهما ، وانمت النفوس اليهما خاصة ، لتبدأ باحرازهما فتصلح بهما أعمالها كافة ،

ربما تبين الناظر فيما ذكرنا وجه الحق فى هذا الخبر الكريم وهو أن الانسان فى خسر الا من استكمل لنفسه هذه الصفات التي ذكرت ولكنا مع ذلك نزيده توضيحاً

الايمان بالمعنى الذي بيناه طور من أطوار النفوس البشرية ارتقت اليه ، لتخلص من سوء حال كانت عليه ، النفوس البشرية فى طموحها الى الشهوات هي على نحو ما عليه الحيوانات مع امتياز فى قوة استحضار الغائب وتمثيل الآتي فتفاقت سائر نفوس الحيوان فى الحرص على نيل ما يلذ لها مما

ألفته، واد خار مايوفر لها أضعافه فيما يستقبل من الزمن، فكل نفس تستعمل قواها، في تحصيل مايرمي اليه هواها، فما أعظم الشر تصوره في أشخاص من البشر لاهم لواحد منهم الا في تحصيل مايتخيله لذيذا ونافعا، واتلاف مايتمثله مؤلما أو ضارا، ثم ينظر الى ذلك في يدغيره فيثب عليه ليستخلصه منه لنفسه او يتلفه لزعمه انه ضارٌ به ولا رادع للمعتدي الا ما يكون من المعتدى عليه ولا يصدق أحد منهم بأصل للخير أو للشر أو للفضيلة أو للرذيلة وإنما الخير عند كل واحد مايلذه أو ينفعه سواء آلم غيره أو أضره أم لم يكن كذلك

أي شقاء يصيب النفوس البشرية اذا خلت من الشعور بذلك الاصل العظيم أصل التمييز بين الخير والشر ؟ فمن لم يكن مؤمنا بهذا الأصل ولم يصدق بالحسنى كما ورد في سورة الليل فقد خسر خسرانا مبينا، الفرد الواحد في ذلك ينال نصيبه من الضلال، وسوء الحال، اذا خلا قلبه من ذلك الشعور فانه يخبط في معاملته لمن معه على غير هدى، فيصيبه منهم مايصيبه من الاذى، ثم هو لا يزال قلق البال، حليف البلبال، كما لا يخفى. ونصيب الامة من ذلك أعظم من نصيب الفرد بالاحد له

من لم يؤمن بالقوة العظمى، والقدرة العليا، والحكمة السامية، والسيطرة القاهرة، التي ينتهي اليها كل عمل في الوجود، وبأن جميع ماعداها فهو في قبضتها، فقد قصر نظره، وضعف بصره، وعظم وهمه، ووهى معتمده، يرى كل قوة من القوى التي بين يديه كأنها مصدر وجوده، ومصرفة أموره، واذا أصابه شيء من الشر لا يعرف له سببا تخيل السبب شيئا من تلك القوى كما يخطر بباله، أو أصاب شيئا من الخير بدون كسب منه اخترع

له وهمه مصدرا كما يتفق له ، فتكثر عليه الارباب، وتنسد في وجهه طرق الاسباب ، ويعتمد في شئونه على مالا يصح الاعتماد عليه، وهذا هو منشأ ضروب الوثنية ، التي كانت سببا في فساد العقول البشرية، والخسران الذي نزل بأهلها أفرادا او أمما لا يخفى خبره على أحد ولا يزال ينزل بها من الخسران مايسوء أثره الى اليوم

أما من آمن بأن جميع القوى التي نراها إنما تصدر من قوة واحدة وهي تحت نظام تدبيره إرادة واحدة وأن من الواجب على العاقل اذا جاءه شيء من الخير أو الشر لا يظهر له سببه ان يبحث بعقله حتى يقف على السبب او ينتهي الى مقدر الاسباب فلا ريب انه ينجو من شر ذلك الخبط ، ويخلص من ورطة ذلك الخلط ، ويستوي في نظره جميع ماهو في الكون وتتساوى جميع أفراده عنده في أنها مربوبة لا يمتاز شيء منها على آخر إلا بما ميز به من الخصائص، ومايكون له من الآثار ، فيسكن قلبه من كل ناحية ، ويعظم اعتماده على تلك القوة الواحدة ، ولا يأخذ في أعماله الا بما سنته له، فيعتبر ماوضعته من نظام الاسباب والمسببات، فيجري عليه ثابت الجاش مطمئن القلب ، غير خائف من شيء بعد ماعرف من القدرة الالهية ماعرف

من لم يؤمن بأن الحكمة السامية تقضي بأن يكون في البشر مبشرون ومنذرون يوضحون السبل ، ويكشفون الحجب، ويغمض عينيه عن النظر في الادلة التي تؤيد دعواهم ، يحرم حظا وافرا من المعارف التي يصعب على عقله أو يستحيل عليه ان يصل اليها بدون واسطة هؤلاء المرشدين، ويلتبس عليه كثير من أمره ، وتخفى عليه طرق الصواب في كثير من عمله ، فيقع في الشر وهو يسعى الى الخير، ويصيبه الضر ، من حيث كان يطلب المنفعة ،

وأي خسران أعظم من هذا

من فقد الايمان بالله على الوجه الذي بيناه فأقل مايخسره قوة العزيمة بالاعتماد على من تحيط قوته بالاكوان ، وأدنى مايفقده ركون النفس الى سندها الاكبر عند نزول الشدائد ، (١) وأخف ما يصيبه من الخسران تشتت الاهواء عليه واضطرابه بين دواعيها ، وحرمانه من الهادي الذي يرشده الى الوجهة التي ينبغي ان يولي وجهه نحوها ، فيظل فى حيرة لاخلاص له منها ، وأي شقاء أعظم منها ، والامم فى هذا الشقاء كالافراد

الاعمال الصالحة تتبع الايمان الصحيح فى الاغلب غير ان من الناس من يظن ان الايمان قول يعبر عن خيال في النفس لاأثر له فى العمل أو انه اعتقاد يتخذه الشخص مميزا له عن غيره فى جامعة من الجوامع كاعتقاد المسلم بأنه من أهل التوحيد وانه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ليتميز بذلك عن غيره من الملل وكاعتقاد كل ذي دين بما يظنه من دينه ومع ذلك لايأخذ نفسه بالعمل على سنن ذلك الدين . وهذا الايمان لاينجي صاحبه من الخسران بل لابد في النجاة من العمل الصالح وقد بينا الاعمال الصالحة فيما سبق إجمالا ولا خسار أعظم من خسار يحل بمن لم يأت تلك الاعمال سواء كان ذلك في الدنيا أو الآخرة

وببيان الخسران بذلك المعنى الذي فهمته تعلم أنه عام في كل من

---

(١) يؤيد هذا ماثبت من ان الجنود المتدينة اشجع واثبت من الملحدة أو ضعيفة الدين وقد كتبت الجرائد الاوربية هذه الملاحظة فى أثناء حرب انكلترا والترانسفال ومن ذلك اتفاق العارفين على أن جيش الدولة العلية فى مقدمة جيوش العالم شجاعة وصبرا على المكاره . هذا وما ... فكيف لو رجعت الى ذكر الصحابة والتابعين

فقد الايمان وترك العمل الصالح سواء كان ممن بلغته دعوة الانبياء وحاد عن سننهم أم كان ممن يسمونه (أهل الفترة) أم ممن لم تبلغهم الى اليوم دعوة سواء قلنا بنجاة هؤلاء في الآخرة أم لم نقل فان الخسر في الآية الكريمة ليس محدودا بخسر الآخرة وخسر الآخرة ليس محدودا بالابدي منه فصريح الآيات ان من لم يكن من المؤمنين أولم يعمل الصالحات فهو خاسر أي ضال أو واقع في شقاء على ماسبق بيانه. ولا ريب في عموم ذلك لجميع أصناف البشر في أي زمان وفي أي مكان وعلى أي حال

بعد ان ذكر ركنين من أركان النجاة من الخسران في الامم والافراد جاء بركنين آخرين لايتم كل منهما الا بتعاون الافراد ولا يمكن لفرد واحد ان يستقل به وهما ركنا التواصي بالحق والتواصي بالصبر على النحو الذي بيناه. فان التواصي لايكون الا من متعدد فلا نجاة من الخسران الا بأن يقوم الافراد من الامة مهما عظم عددهم بأن يوصي كل واحد منهم من يعرفه من الباقين بأن يطلب الحق ويلتزمه وأن يأخذ بالصبر في جميع شئونه فلو ان شخصا واحدا قام بذلك وأوصى غيره ولكن الباقين لم يقوموا بمثل ماقام به لحل الخسر بالجميع في الدنيا لامحالة فان الامة اذا غفل معظمها عن الحق والدعوة اليه ووهن الصبر في نفوسهم فلا محالة يستولي عليها الباطل وتضعف منها العزائم فيسوء حالها وترمي بنفسها في المهلكة «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» واما في الآخرة فالخسار إنما يحيق بمن لم يوص أو من لم يسمع الوصية ولم يقبلها. فان كان الموصي لم يحصل من وسائل التقريب مايحتاج اليه وكان قصور صاحبه من طريقة نصحه ولو سلك غيرها لقبل منه كان الخسار في الآخرة عليه كذلك، وأي

نجاة لامة يسكت أبناؤها على المنكر يفشو بينهم ولا تتحرك نفوسهم الى التناهي عنه والمنكر مفسدة الافراد ومقراض الامم؟؟

التواصي بالحق والتواصي بالصبر يدخل فيهما الامران الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لان من أوصى بالحق ودعا اليه لا يتم له ذلك حتى ينهى عن الباطل ويصد عنه، ومن أوصى بالصبر على مشاق الاعمال الصالحة لا يكمل له ذلك حتى يبين مساوي الاعمال الخبيثه وعواقب التفريط بترك تلك الصالحات فقد أودع الله في هذين الركنين ركني الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في جميع الاعمال والاحوال وقرر لنا ان لا نجاة لقوم من الخسران في الدنيا والآخرة الا أن يقوم كل واحد منهم بما يجب عليه من ذلك في القدر الذي يمكنه وعلى الوجه الذي يمكنه، وقد أكد لنا الخبر بما أورده من القسم فليس في الخبر تجوز، ولا فيما تضمنه من الامر هوادة، فمن الواجب على كل أمة تريد ان تنجو من الخسران ان تقوم بهذا الفرض وهو التواصي بالخير والتناهي عن الشر أو التواصي بالحق والتواصي بالصبر، فاذا طرأ على عوائد الامة أو نزل بها من الحوادث ما ينهض اليها التناصح أوجب اليها التساهل في فريضة التواصي كان ذلك انذارا بحلول الخسارة وتعرضها في الدنيا للعار والدمار، وفي الآخرة لعذاب النار،

ولا يجوز لاحد ان يتعلل بذلك التساهل اذا وقع من الامة ويقنع نفسه بأنه عاجز عن النجاح في نصيحته ولهذا يكفيه ان ينكر المنكر بقلبه وبذلك ينجو من الخسران الاخروي ان لم ينج من الخسران الدنيوي كما يتوهمه بعض المسلمين اليوم خصوصا أولئك الذين عرفوا بينهم بالعلماء فقد أخطأوا الخطأ العظيم في زعمهم أن إعراض العامة عنهم ينجيهم من التوبة لا لهيئة

اذا لم يبذلوا النصح لهم ولم يبينوا لهم وجه الحق وان أنكروه وصكوا وجه الداعي اليه فقد صدق الله وعده ، وأكذب خبره ، ولا سبيل الى التأويل في أمره ، ولا الى جحد ما يتلوه من أثره ،

يحتج كثير من عامة اولئك العلماء بحديث « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه » (*) ولكننا نقول انه لا يصح الاحتجاج به في ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فان تغيير المنكر عند رؤيته شيء يتعلق بأمر خاص وهو المنكر المعين الواقع من الشخص المعين وقد يتسامح في معاملة الشخص المعين في حالة مخصوصة لشأن مخصوص فان ملكا من الملوك أو أميرا من الامراء الظالمين لا يحتمل ان يقال له : ان الأولى بك ان لا تفعل ما تفعل أو ليتك لم تفعل هذا أو ليتك فعلت هذا : فضلا عن ان يقال له : أترك هذا فانه منكر أو افعل هذا فانه من المعروف : وربما كانت كلمة من هذا القبيل سببا في اتلاف نفس القائل ، بسطوة ذلك الظالم ، ولكن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لم ينحصر في طلب تغيير المنكر في هذه الحالة المحدودة بل ذلك شامل للوعظ العام في المساجد والطرق والاسواق والمنتديات وفي أوقات الاجتماع الخاصة وفي الحديث مع الاصحاب والاحبة وفي كل حال من أحوال الاجتماع خاصة وعامة ، ومثل هذا يستطيعه كل واحد من الناس على حسبه فلا يمكن

(*) المنار — تتمته « وذلك أضعف الإيمان » رواه أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان وهو حجة على تاركي فريضة الأمر والنهي كسلا وتملقا لانه يأمر ببذل الاستطاعة واستنفاد الطاقة في هذه السبيل على خصوصية الموضوع كما قال الاستاذ الامام

لأحد ان يزعم انه عاجز عن القيام بفرض الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على الاطلاق لانه لا يوجد أحد يزعم العجز من جميع الوجوه الا أن يكون قد بلغ من العجز غاية لا يبلغها الحيوان الاعجم

غير انه يجب على العلماء ومن يتشبه بهم ان يتعلموا من وسائل القيام بالواجب ما تدعو اليه الحال على حسب الازمان واختلاف أحوال الامم وأول ما يجب عليهم في ذلك ان يتعلموا التاريخ الصحيح وعلم تكوين الامم وارتقاءها وانحطاطها وعلم الاخلاق وأحوال النفس وعلم الحس والوجدان ونحو ذلك مما لا بد منه في معرفة مداخل الباطل الى القلوب ومعرفة طرق التوفيق بين العقل والحق وسبل التقريب بين اللذة والمنفعة الدنيوية والاخروية ووسائل استمالة النفوس عن جانب الشر الى جانب الخير . فان لم يحصلوا علم ذلك كله فوزر العامة عليهم ولا تنفعهم دعوى العجز فانهم ينفقون من أزمانهم في القيل والقال ، والبحث في الالفاظ والاقوال ، ما كان يكفيهم ان يكونوا بحار علم ، وأعلام هدى ورشد ، فليطلبوا العلم من سبله التي قام عليها السلف الصالح والله كفيل ان يمدهم بمعونته . اما وقد انقطعوا الى ما يعجزهم من القيام بأمره فلن يقبل الله لهم عذرا بل فليتربصوا حتى يأتي الله بأمره

لو قضى الزمان بأن يكون من وسائل التمكن من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واشغال الناس بالحق عن الباطل وبالطيب عن الخبيث أن يضرب الانسان في الارض ، ويمسحها في الطول والعرض ، وأن يتعلم اللغات الاجنبية ليقف على ما فيها مما ينفعه فيستعمله ، وما يخشى ضرره على قومه فيدفعه ، لوجب على أهل العلم ان يأخذوا من ذلك بما يستطيعون

ولهم في سلف الامة من القرن الاول الى نهاية القرن الرابع من الهجرة أحسن أسوة ، وأفضل قدوة ، وكل ما يموهون به على أنفسهم مما يخالف ذلك فانما هي وساوس الشيطان ، يشغلهم بها عن النظر في معاني القرآن ، ويحرمهم من التعرض لرحمة الرحمن ،

بقيت مسألة كثر السؤال عنها، والالحاح علي في التعرض لها، كلما ذهبت الى مكان وجدت لها حاملا ، لايلبث أن يتوجه الي سائلا ، وهي مسألة الاختيار والكسب، ونسبة الافعال الاختيارية الى العبد أو الى خالق العبد، ولا أنكر ان هذه المسألة كانت من أعظم المسائل خطرا على الاسلام والمسلمين ولكن كان في مرور الزمان وتتابع الحوادث مايهدي الناس الى وجه الحق فيها ويرشدهم الى ان يرجعوا الى كتاب ربهم وهدي نبيهم

نزوع النفوس الى الخوض في هذه المسألة ضرب من ضعف الصبر أو فقده . الوجدان يشهد والحس يشاهد أن الذي يرفع يده بالسيف ويضرب آخر فيقتله هو الذي ضربه ويقول الرائي والمخبر : إن فلانا قتل فلانا أو ضربه أو اعتدى عليه : فنسبة الافعال الى من صدرت عنه من العباد مما لايحتاج الى بحث ولا نظر. ثم جاء القرآن يقول « بما كنتم تعملون » « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » وغير ذلك من الآيات حتى قال في الآية التي يحتجون بها « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » فلو سلم ان المراد مما تعملون العمل نفسه فقد نسب العمل اليهم وقامت أحكام الشريعة جميعا على هذا الاصل . ولو كان فعل العبد ليس له لبطل تكليفه به إذ لا يعقل ان يدعى شخص الى مالا يقدر عليه، وان يكلف بالا ثر لا رادة له فيه، ولو كان فعل القاتل ليس له لامتنع القصاص ولم تكن فيه لنا حياة . فالعقل والشرع

والحس والوجدان متضافرة على ان فعل العبد فعله . وكون جميع الاشياء راجعة الى الله تعالى ووجود الممكنات انما هو نسبتها اليه ولا يتصور اعتبارها موجودة الا اذا اعتبرت مستندة اليه ـ مما قام عليه الدليل بل كاد يصل الى البداهة كذلك . ومثل هذا يقال فى عظم قدرة الله تعالى وانه ان شاء سلبنا من القدرة والاختيار ماوهبنا فهو أمر نشاهده كل يوم ، ندبر شيئا ثم يأتي من الموانع من تحقيقه مالم يكن فى الحسبان ، ونتناول عملا ثم تنقطع قدرتنا عن تتميمه ، كل ذلك لانزاع فيه ، شمول علم الله لما كان ولما يكون قام عليه الدليل ولا شبهة فيه عند المليين ، فوجب على المسلم ان يعتقد بأن الله خالق كل شئ على النحو الذي يعلمه وان يقر بنسبة عمله اليه كما هو بديهي عنده ، ويعمل بما أمره به ويجتنب مانهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذي يجده من نفسه ، وليس عليه بعد ذلك ان يرفع بصره الى ماوراءه فقد نعى الله على المشركين قولهم « لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا من شئ » ووردت الاحاديث متواترة المعنى فى النهي عن الخوض فى القدر وسره

فلو صبر العبد حق الصبر لوقف عند ماحدّ الله له ولم ينزع بنفسه الى تعدي حدود الله التي ضربها لعباده . ولست أحب التكلم في هذه المسألة بأكثر من هذا والا خرجت من الصابرين ، وخضت فى القدر مع الخائضين .

ومن ثار به الهوس فتوهم ان علينا ان نعتقد ان العبد لا فعل له فقد خالف كتاب الله ، وعصى رسول الله ، وقد أقول ـ واعتمادي على الله فيما أقول ـ : ان من يقول ذلك يخرج عن دين الله ، ويعطل شرع الله ، فليحذر ويؤمن بالله ان يقول ذلك ، واسأل الله ان يرشدنا جميعاً الى مافيه صلاح

أنفسنا وان يوفقنا للتواصي بالحق والتواصي بالصبر بفضله وكرمه

قد يمر بخاطر سائل ان يسأل : اذا كان هذا الذي ذكر في هذه السورة هو حكم طبيعة الانسان في كل فرد من أفراد المكلفين منه وان من لم يكن على هذه الصفات فهو خاسر ضربا من الخسران في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما وان من أخذ بالحظ الاوفر منها نجا من ذلك الخسران فما بالنا نرى من غير المؤمنين من يتمتع بالسعادة في هذه الدنيا أمما وأفرادا ، ونرى من المؤمنين من يغمره الشقاء أمما وآحادا ، وإذا شئت مثلا لذلك فانظر الى حال اليابانيين وهم وثنيون أو حال بعض الامم الاوربية التي لا يعتقد الكثير من أفرادها بالله ولا برسله وقارن بينهم وبين الأمم المؤمنة كالمسلمين مثلا:

فندفع عنه هذا الخاطر بأن مايراه في بعض الامم من ظاهر السعادة ليس الا لمعان السراب حتى اذا جاءه وحقق أمره لم يجده شيئاً. قال ماكس نوردو في كتابه المسمى (الاكاذيب العرفية لتمدننا) مامعناه: « ان الناس كانوا ولم يزالوا يطلبون الحق ولم يكونوا في زمان أبعد عنه منهم في هذا الزمان » ثم قال ماترجمته « إنك لو طرقت أي باب تسأل: هل مرت السعادة بهذا البيت ؟ لاجابك مجيب : اذا شئت فاطرق بابا آخر فان السعادة لم تمر ببيتنا » وهو يقول ذلك بعد ان ذكر ماعليه حال الامم الاوربية جميعها ونسبته من السعادة والشقاء وبعد ان أجمل من وصف أحوالهم والمصائب التي تتوقع لهم والآلام الشاغلة لقلوبهم أجمعين مايرحمهم لأجله المقصرون عنهم، ويزهد الراغبين في مثل حالهم، ويصدهم عن اقتفاء آثارهم، وبين سبب ذلك وانه بعدهم عن الحق ونزوع أنفسهم الى الباطل وفقدهم الصبر في طلب

المال، هم ولهم خلف داعي الشهوة لا يعصون له أمراً، ولا يخالفون له إشارة، ومنشأ ذلك خلو نفوسهم من الركون الى الإله الواحد خالق الجميع ، رازق الاحياء ومقدر الاسباب لمكاسبهم على حسب ما وهبهم من القوى والقدر. ولو اطلعت على مأخذ اليابانيين من ذلك وبما تألم له نفوسهم من الأوهام الوثنية التي ماتعلمت بروح الا أفقدتها السكينة وأوجدتها الاضطراب صعب عليك ان تحكم بأنهم سعداء فاذا كان لهم شيء من السعادة فهو ببركة التواصي بالصبر أو عمل بعض الصالحات التي جعلها الله عمادا للسعادة في هذه الحياة الدنيا كالامانة والصدق وارتفاع الهمة والأخذ بالحق فيما يرفع الشأن ويكسب العزة.

أما حال المؤمنين - ان كانوا - فهو لا يخالف الحكم الوارد فى الآيات الكريمة فانا لا نعني ولا يعني عاقل بالسعادة وفرة المال ورفه العيش فى ظاهر الامر وان كانت النفوس قلقة ، والضمائر محترقة ، ولكن السعادة سكون النفوس وراحة الضمائر ، واطمئنان السرائر ، والرضى الحقيقي بما وصل الى اليه ، والسعي المقارب الى الرغيبة من سبلها المعروفة ، مع المعرفة بتلك السبل ، والاعتماد على الهادي اليها ، ولا أشك فى انك تجد هذه الطمأنينة عند المؤمن بالمعنى الذي قدمنا فى أي أرض وجد ، وفى أي أمة ولد ، وأما المثل الذي ضربته وهو حالة المسلمين فإني أقول لك ولا أخشى لوم لائم إن من كان مؤمنا وعمل الصالح وقام بفريضة التواصي بالحق والتواصي بالصبر فهو راض عن نفسه ، راض عن ربه ، سعيد وان كان بين الاشقياء ، حكيم وان وجد بين السفهاء ، لا يعرف الشقاء الا بما ينعكس اليه من صوره فى نفوس غيره ، وأما البقية فان كانوا خاسرين فخسرانهم جاءهم من فقد

الاركان الاربعة. أما الايمان فلأنهم أخذوه أسماء واكتفوا به علما ورسما، ورثوا عن الآباء والامهات، صورا وعبارات، ومثل عبادات، لايحرك بصدرهم شيء من معناها، وأوفرهم حمية على التوحيد أملأهم من الاشراك تحت أسماء اخترعها، وألقاب اختلقها، كالوسيلة والواسطة ومايشبه ذلك مما لم ينزل به الله سلطانا وأما العمل الصالح فكيف يجتمع مع الحسد والمداوة والكبرياء والجهل والكسل ونحو ذلك مما تراه في عامتهم، والأغلب من خاصتهم، وأما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فلم يبق له أثر بينهم. يرون مايرون من المنكرات، ويحسون بما يحسون من فاسد الاعتقاد، وكل منهم ساكت عما يرى ويحس من الآخر كأنه لاصلة بينهما في الدين، وكأن لم يرد في دينهم مايدعوهم الى التناصح، ولو أن واحداً منهم نصح للآخر لقامت عليه قيامته، وظنه محتقراً لمنزلته، غامطا لحقه، وكيف لايخسر قوم هذا شأنهم؟؟ فلو أنهم رجعوا الى دينهم، وأقاموا في أنفسهم هذه الاصول الاربعة لرأيتهم وقد وفاهم الله وعده في قوله «وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا» ولخرجوا من حكم الوعيد الذي انذرهم الله به من قبل في قوله «وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ». «إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ» والله أعلم